

رمضان.. عودة إلى الذات



الكيان الإنساني - بحكم فطرته التي فطرته الله عليها - وحده.. تشمل الجثمان والروح.. تشمل "المادة" و"اللامادة" ..

فهو مولّـف من قبضة من التراب، تتمثــل فيها عناصر الأرض، من حديد، ونحاس، وكلسيوم، وفسفور، وأوكسجين، وإيدروجين.. لتشيع فيه شهوات الأرض، ورغبات النفس، ونزوات الحســ الغليظ.. ونفحة من روح الله، تنبئ منها سمات العقل، وتأمــلات الفكر، ورفرفات الروح..

والعجبية في هذا الكيان البشري، أنــ ذلك الشتات النافر المنتشر، قد اجتمع وترابط وتوحدــ، وأصبح أكبر قوــة على الأرض! ذاك حين تقتبس الذرة المجهولة، من قوــة الأزل السافرة، فتشتعل وتتوهج، وتنبنيق طليقة جاثمة، تمتزج فيها المادة، واللامادة فيما سواه..

وفي ذات الوقت يحتفظ، كلــ باستقلاله وإشاعاته ورغباته.. وينشب الصراع الحامي الطويل، فأيــهما انتصر، ملك قياد الفرد، وسرى عليه نفوذه وسلطانه..

فالجسم المادي، مركــب من البساطة الأرضية، وخاصــ لأحكامها، فهو لا شيء غير مادــة عــصوية، مركبة

من خلايا تشبه خلايا الحيوان والنبات.. وبحكم فطرته المركبة، سائر إلى الاستحالة، والانحلال، إلى أجزاءه البسيطة السابقة.. وأمّا الروح المشرقة، فليست مركبة من بسائط أوّلية، حتى يحكم عليها بالاستحالة إلى تلك البسائط، بل هي باقية أبدية...

ولكلّ من الجثمان والروح، مطالب تناسب طبيعته، ودرجته في مراتب الوجود، فالجثمان لا يفترق عن بقية أنواع المادة، في قوله للزيادة والنقص والقوّة والضعف، والتحلل والتركيب.. ومن أجل ذلك، فهو يحتاج إلى مقومات تقومه من نوعه، كالغذاء والكساء والسكن.. ولكن الروح - بطبيعته العلوية النيرة - لا تطلب المقومات العنصرية، وإنّما هي تواقة إلى الشرف والكمال، للإلمام بأسرار الملكوت، والتطلّع على ما وراء الطبيعة...

وإذا كانت الروح تنزع إلى الكمال والارتقاء - والتجربة الإنسانية، المعاذه، دلّت على مقدرتها على التخلق والارتقاء - فما الذي يصدّ بعض الناس عن التطلّع إلى الكرامة الإنسانية، ويدهضهم في المجال والمزالق، ليتسفلوا متخبظين؟.. نعم.. إنّ الجسم بشهواته ونزااته، الذي يسجن الروح الشفيفة عن التوبّ والانطلاق.. لأنّ الجسم والروح ثقلان متارحان، كفتي ميزان، لا تثقل هذه إلّا وتحف الأخرى، ولا ترجح تلك إلّا بمقدار ما تبخس هذه..

ولذلك نجد في الناس مَنْ غلبت عليه مادّته، فوهب نفسه لها، لا يفكّر إلّا في إشباع شهواته، كيفما أمكن ذلك الإشباع، فهزلت روحه، وتصايلت منكودة حاسرة... ومنهم من محن للروح، فسمت وتعالت، بينما انهدت قواه وتكسر كيانه...

فأي الطرفين قد أصاب الحقيقة، وأحرز النجاح الإنساني المنشود؟.. لا جرم أنّ كليهما قد أطأ الواقع!.. فأمّا مَنْ تطوع للجثمان، وجرى في أعقاب الشهوات، فقد خنق إنسانيّته، ولم يزد على بهيمة وحش.. وأمّا مَنْ انقاد للروح، فقد هضم حقوق جثماه، وعطل نظام الكون، ويكون أشهب بمن دخل حديقة غذّاء، ليستغلها وينعم بها، فتروع عنها، حتى صوحت أزهارها، واقتلت قاعاً صفصفاً تأويها الحشرات والديدان..

إذن فعلينا: أن نلتمس حاجات الروح والجثمان، فنعدل بينهما، ونوفيهما حقوقهما العادلة.

وإذا كان الجسم يحتاج إلى نظام الصحّة، في استيفاء سعادته، فكذلك الروح، تحتاج إلى نظام الدّين، في استيفاء نموها الطبيعي، ورشدها المأمول، والظرف بالأمانى التي تشرئب إليها...

والصيام من سُنّة الدّين، التي تعمل لتكيف الروح.. وهو للروح كالرياضة السنوية للجسم..

فكمّا أنّ قانون الصحّة، يحتم على كلّ عامل - يريد حفظ صحّته - أن يريّـه نفسه شهراً كاماً في السنة، يقلّل فيه من غذاء النفس (أي العمل في الحقول الفكرية).. كذلك نظام الصحّة الروحية، يفرض على كلّ إنسانٍ، أن يقلّل شهراً في السنة من غذاء جثماه...

ولما كانت بينة أطباء الأجسام، في ضرورة الإقلال من تغذية النفس، شهراً كلّ عام، هي لزوم تعويض ما فقده الجسم، من القوّة، مدى الأحد عشر شهراً، نتيجة الانهيار الفكري... كذلك حجة أطباء الأرواح، في القمد من الطعام مدى شهر كلّ سنة، هي تعويض ما فقدته الروح الإنسانية، من جراء تفرّغ الإنسان، للمادّيات طوال العام..

وليس الهدف من هذه التحديدات، إلّا حصول الموازنة، بين الروح والجسد، وعدم غلط حقوق تلك، للتوفير على هذا، أو إهمال هذا لتشجيع تلك... فيما يعيش الإنسان كاماً معتدلاً، في مناخ قانوني، يسنج لروحه وجسمه معاً، أن يعبّـرا عن سجيتهما، ويبلغـا أقصى مدى إمكانات النبوغ والرشد فيهما..

ذلك، كان مشهداً من تصارع الجسد والروح، وكانت حكمة الصيام فيه بالغة..

هناك قوىٌ أخرى تتصارع في الإنسان، لابد من إنصافها في نفسها، وللصيام في معاركها أصبع، بل مسند القضاء.. لأنَّ الإنسان جسد وروح يتتصارعان.. وشهوة وعقل لا يفتَأِ بينهما المصارع، غير أنَّ الشهوة تتشييع للجسد، والعقل يتتشييع للروح، فالجسد والشهوة معاً في جانب، والروح والعقل معاً في جانب، ومجال المصارع هو الإنسان..

فـكما أنَّ الجسد يحتاج إلى الغذاء العنصري، كذلك الشهوة تحتاج إلى الغذاء الجنسي... ولـكـنـهما يـنـتـلـقـانـ منـ نـقـطـةـ وـاحـدةـ، فـمـتـىـ شـبـعـ الـبـطـنـ تـحـرـكـ الـغـرـيـزـةـ لـتـرـتـوـيـ، وـكـلـاـمـاـ سـكـنـتـ الـغـرـيـزـةـ هـدـأـ الـجـسـدـ..

ف بذلك كان لابد أن تسكن الغريزة ويهدأ الجسد، ليتحرك العقل وتنشط الروح.. ومن أجل هذه الحقيقة، كان الصوم أجدى وسائل تربية العقل والروح معاً.. أو لا ترى كيف يمكن بصرامة، تحركات الغريزة والجسد معاً، ويجعل لهما كفارنة سواء...

ومن هنا كان الصوم، ركناً هاماً من أركان الدّين.. وهو الركن الذي يجمع بين واجب التعبُّد، وبين ترويض الجسد والغرائز، مما حلّ لهما المتعة به، في فترات دقيقة رتيبة، لистريحان بين الحين والحين، وينشط العقل والروح..

وهنا تكمن عبقرية الإسلام، فليس هو دين دنيا فقط، ولا دين آخرة فحسب.. بل هو دين الحياة بحملتها الشكلية والزمنية.. دين العالمين، ومن يوم خلق الله الكون إلى أن تنتهي الحياة، كما عبر عن هذا الواقع سيد الأنبياء (ص): "ليس خيركم مَن ترك دنياه لآخرته، ولا مَن ترك آخرته لدنياه، بل خيركم مَن أخذ من هذه وهذه".

وإذا حقّ ذلك، ظهر أنّ المفهوم سدّة البشرية، وجزء صميم من نظام الكون الذي يجب أن يعيش أبداً إلى جانب الخبز والماء، وأن يعيش الإنسان كما يعيش البطن والجنس، وما دام له عقل وروح، فهو من الحاجات الأساسية المضورية للإنسان، وليس من الأحكام الموقوتة، التي تفرض لاستجابة فترة زمنية، حتى يلغيه التطور، كما يظن بعض الهاشميين مع الأهواء.

إِذْمًا هو سُنّة ثابتة على الدهر، لا يُنْطَوِّر أَبِدًاً، مَادَامُ الإِنْسَانُ وَالْكَوْنُ وَمَا دَامَتُ الْحَيَاةُ، عَدِيَ الْحَالَاتُ الْأَسْتِثْنَائِيَّةُ، الَّتِي نصَّ الشَّرْعُ عَلَى إِسْتِثْنَائِهَا مِنْ أَوْلَى يَوْمٍ...

- الصوم في سائر الشرائع:

ولذلك كان الصوم ركناً في جميع الأديان السماوية، وأشباه الأديان، وحتى في الشرائع الوثنية، فقد كان قدماء المصريين، والأغريق، والرومان، وسكنّان ما بين النهرين في العراق، يصومون أيامًا مختلفة في العام... .

وقد رُوِيَ أَنَّ نوحًا (ع) صام، عندما جنحت به سفينته إلى البرّ، غبًّاً - لأن عصف به الطوفان، مائة وخمسين يوماً ..

والمعروف: أنَّ موسى بن عمران (ع)، كان يصوم ثلاثين يوماً كلَّ عام، وكان للعبريين صوم خاصٍ يؤدونه، غير أنَّ اليهود، جعلوا يصومون يوماً واحداً في العام، هو يوم عاشوراء، ابتهاجاً بنجاةبني إسرائيل من الغرق، في البحر الأحمر... .

وأمّا النصارى فأشهر صومهم وأقدمه، هو الصوم الكبير، الذي يُقال: إنَّ عيسى بن مريم (ع)، كان يصومه... وقد ابتدع رجال الكنيسة، ضرباً أخرى من الصوم، يباشروها الآن..

وتصوم أصحاب الدّيانات والملل والنحل الحيّة اليوم، مددًا مختلفة، لها مواعيدها وطقوسها الخاصة...

وقد صامت مريم ابنة عمران، ويحيى بن زكريا، صوم الصمت، وقد تحدّث القرآن عن صوم الأولى فقال: (فَإِمَّا تَرَىٰ فِي مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّهُ يَنْذَرُتُ لِلَّهِ حَمَنْ صَوْمًا فَلَمْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِزْسِيًّا) (مريم/26) وأنباً عن الآخر فقال: (وَالَّذِي أَجْعَلَ لِي آيَةً قَالَ آيَةً تُكَلِّمُ أَلَا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَّالٍ سَوِيًّا) (مريم/10).